

## التاريخ في سبر أبطار

## أحمد عرابي

لما آل التاريخ أن يصيب هذا المصري الفلاح  
وأن يحدد له مكانة بين فرادى حركات القومية ؟

## للأستاذ محمود الخفيف



نوافذ قصره يخبرهم بإجابة مطلبهم الأول فقد عزل رفيق، وطلب  
لإنهم أن يختاروا من يحمل محله حتى لا يعودوا إلى الشكوى، فوقع  
اختيارهم على محمود باشا البارودي ؟ ووعد الخديو بالنظر في بقية  
مطالبهم والعمل على إنصافهم . وطلب الضباط الإذن على الخديو  
فتلوا بين يديه وأعرضوا له عن امتثالهم وولاهم لشخصه وإخلاصهم  
لعرشه ، ثم انصرفوا وانصرف الجند فرحين مستبشرين

وكان على الخديو أن يتدبر الأمر منذ بدايته ونظر ما إذا كان  
لديه قوة تقع بها الحركة إن كان لا يد من وضع العنف موضع  
العدل ؟ فإن عدم القوة كان أمامه أن يلجأ إلى اللين غير مكره  
ولا مطلوب على أمره ... ولكنه تصرف في الأمر على نحو ما رأينا  
فأفضى إلى نتائج خطيرة سوف تؤثر أثرها في مجرى الحوادث ،  
فظفر الجند بمطالبهم في عنف وهجز الحكومة عن مقاومتهم  
قد وضع الخديو وحكومته في موضع الضعف وأحل عرابيا وحزبه  
محل التوثب والتطلع وجعلهم مناط الرجاء والأمل هذا إلى ما تركه  
هذا الحادث من سخيعة في نفس الخديو يصعب بعدها كل تقام  
ووليس فيها كل حق بالباطل ؟ ثم من حذر وريية في نفوس الجند  
بإتيان على كل حركة من حركات الحكومة شبح الذعر ويلبسان  
كل عمل من أعمالها ثوب الرياء

على أن ما يبتينا فيما نحن بصدده أن هذا الحادث قد أدى  
إلى ذبوع سيت عرابي على نحو لم يسبق لفلاح غيره في مصر ،  
فسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح على كل لسان في القاهرة وسمع  
بذلك الاسم الأجانب ومن لم يكن يعرفه من المصريين ؟ ولم يقف  
الأمر عند القاهرة بل لقدون هذا الاسم في القرى فأفاق على رغبته  
الساحر أولئك الأعيان والمشايع الذين تعودوا منذ القدم أن يخضعوا  
خضوعاً مطلقاً للترك والجرس ، الذين كانوا ينظرون إلى الفلاحين  
نظراً إلى دوابهم

وعج أولئك الفلاحون أن يمرؤ رجل منهم على تحدى  
الخديو والرؤساء الجواكسة ، فتطلقوا بهذا الرجل ولم يروه ، ورغب  
كثير منهم في رؤيته ، فقدموا إلى القاهرة يعملون إليه الهدايا  
ويعربون له عن محبتهم وإخلاصهم وإعجابهم بمبادئه التي تدور حول  
إنصاف الفلاحين في الجيش ، وراح هو يحطب فيهم شاكراً مطمئناً  
وليت شعري ماذا تكون الزعامة إذا لم تكن هذه زعامة ؟

وذهب الضباط على رأس من أخرجهم إلى الخديو يسمونه  
شكواهم ، وكان بعض أعوان الخديو يشعرون عليه بأخذه بالشدّة  
ومعاملتهم معاملة الثايرين ولو أدى الأمر إلى إطلاق النار عليهم ،  
وقال البعض إن من البت أن تلجأ الحكومة إلى البطش وليس  
لديها وسائله ، فالتفرق جيماً تؤيد عرابيا ومن معه ، والرأي أن يسلط  
الخديو معهم جانب الدين فيطفيء بذلك نار الفتنة

وتفتت الحكمة على الطين ووضع الدين في موضع البطش .  
فأوفد الخديو إلى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت

وكان البارودي وزير الجهادية الجديد ، من دعاة الدستور ، ومن حزب شريف ، ولذلك كانت حلقة الصلة بين الجند وبين الوطنيين ، وكان كثير الاتصال سرّاً بعربى بواسطة على الروي حتى لا تدعو كثرة الصلة به جهرأ إلى رية رياض وحزب رياض ، وبهذه الوسيلة كان الجند على علم بكل ما تريده الحكومة بهم . وهكذا أصبح عربى ملقى الآمال ، يحرص على الصلة به الوطنيون والجند والفلاحون ؛ ولقد بلغ من ذبوع سبته أن أصبح توفيق يشارمته حتى ما يستطيع أن يخفى تلك النيرة .

ولو أن توفيقاً عرف يومئذ كيف يتخذ سبيله وسط هاتيك الأنواء لجلب البلاد ما كانت مقبلة عليه ولتغير تاريخ مصر الذى كان لا يزال مطرباً فى حجب الغيب ، وما كان للخديو من سبيل يومئذ إلا أن ينضم إلى الحركة الوطنية فتكون البلاد كلها تحت لوائه نوابها وجيشها ، ووجوه البلاد وأهلها ؛ وفى ذلك دون غيره سلامتها وأمنها

\*\*\*

كانت سياسة توفيق إن كان نعمة له من سياسة عقب حادث عصر النيل أم المواسل فى تطور الحوادث بعده على النحو الذى سوف نراه ؛ فلقد وقف موقفاً أشبه ما يكون بموقف لويس السادس عشر من مجلس طبقات الأمة حين أجاب نواب العامة فيه إلى ما طلبوا فى مسألة التصويت على القوانين وفى نيته أن يشر بهم متى حانت الفرصة

أدرك الضباط لا ريب أنه أجابهم إلى ما طلبوا إذ لم يكن له من ذلك بد ، ولذلك أحسوا أنه لا بد من تبصير بهم فتربصوا بهم كذلك به

وكان توفيق من ناحية أخرى يكره رياضاً ويعمل على التخلص منه ؛ لذلك وضع نفسه فى موضع عجيب حقاً ، فبينما هو يكره الضباط ويمقت حركتهم وينتوى السكر بهم إذا به يتخذ منهم أداة للسكيد لوزيره بنية إقصائه عن منصبه

وهكذا نشاء الظروف أن يكون رجل كثره هو الذى يحرك دفة الأمور فى مثل ذلك الزمن العاصف ؛ ولم يكن أمامه كما أسلفنا إلا أن يتخذ سبيله إلى الوطنيين فيتخذ من نواب الأمة سنداً له كما فعل أبوه فى أواخر أيامه

ألسنا نرى الآن فى عربى شخصيتين : شخصية الضابط الذى يسير فى مطالب الجيش على رأس الجند ، ثم شخصية الفلاح الزعيم الذى بدأ الفلاحون به يرفعون رؤوسهم وقد خفضوها من قبل أجيالاً طويلة ؟ إني لألحس فى تلك الصحوة فجر عصر جديد للقومية المصرية ، كان عربى أول مؤذن أذن به ، ألس ذلك الفجر الذى سوف يسفر صباحه عما قريب على صيحة فلاح آخر سوف يبرز من القرى كما برز عربى ، هو سعد بن مصر العظيم مفخرة أجيالها ورأس رجالها

ولئن كان جبال قد أبقت الغافلين فى المدن ، فقد بثت عربى بإقدامه أهل القرى من مراقبهم ، فإن حمله هذا أوحى إليهم أن من الممكن أن يخرج من بينهم من يشمخ برأسه على أولئك الجركس الذين طاموا استذلوا فى مصر الرقاب !

وسمينا كذلك من حادث قصر النيل أمر آخر لا يقل عن ذلك أهمية ، ألا وهو التفات الوطنيين إلى عربى ، فمنذ هذه النقطة التفت الحركتان الوطنية والمصرية فتولدت من التقائهما الثورة الرابية فى أصبح مظاهرها وأسديتها

رأى الوطنيون ما أصاب رجال الجند من ظفر سريع ، بينما قد لحقهم هم الفشل ، واستطاع توفيق أد بالأحرى استطاع رياض أن يأخذ عليهم مسالك القول والعمل ، فصرحان ما اعتدوا إلى الطريق الذى يوصلهم إلى أغراضهم فتقربوا إلى عربى ، فأخذ شريف برأسه وسعد بينه وبينه أوامر المودة

وحذا حذو شريف زعماء حركة الإصلاح فى الأزهر وزعماء النواب مثل سلطان باشا الذى كان يمثل الأعيان كذلك بحكم أنه منهم ، واتضح لهؤلاء أنه يجب عليهم أن يستعينوا بهذه القوة الجديدة لإنهاء رياض عن مراكزه ، وبث الدستور المروود وتحقيق الإصلاح المنشود .

وأصبح منزل عربى مقصد الكثيرين من الأحرار كما كان موئل رجال الجيش ؛ ولم يكن موقف عربى فى الحركة الوطنية موقف الأداة كما زين البنى لبعض المؤرخين أن يقولوا ، فلقد كان هو من جانبه من المتكئين ببعاء الشورى منذ نشأته ، وإنه ليؤكد فى كل ما كتب أنه قد طالب فى عريضته ، فوق ما طلب ، بإعادة مجلس شورى النواب ، ليكون فيه موئل للمظلومين من الوطنيين فى الجيش وغير الجيش .

ولو أنه فعل ذلك لضف شار الحزب العسكري إذ كان يحس الرطبيون أن لا حاجة بهم إلى معونة الضباط ، ثم كان الضباط أنفسهم يجهدون في وزارة وطنية تحقق رغائبهم ما يطمعن نفوسهم وبكبح في الوقت نفسه جماهم بطريقة غير مباشرة ولكن توفيقاً لم يلجأ إلى ذلك الحل ، وما شك أنه كان يقطن إليه ، ولكنه كان يقتضيه أن يتزل عن سلطانه إلى نواب الأمة وهو ما شك كل الشك في أنه كان يستطيع أن يحمل نفسه عليه ، ومن هنا أهدقت به وعمفر الأخطار ، هذا فضلاً عن دسائس الأجانب الذين أحكموا شباكهم من مدة لا تنصاف الفريسة الغالية في هذه الأيام الكسرة !

وقع حادث قصر النيل في فبراير عام ١٨٨١ م ؛ وفي أعقاب الحادث مرت على مصر بضعة أشهر ما نظن أنه مر على البلاد فترة مثلها في كثرة ما حيك فيها من الدسائس على قصر أمدها سمع الضباط أن أعوان الخديو يترون بالمال والمناصب بعض رجال الآليات ليكونوا في الوقت الموعود إلى جانب الخديو ، ونمى إليهم أن راضاً يفكر في طرق إجرامية للفتك بهم ، ومن ذلك ما علموه من أنه كان يدبر مشاجرة في أحد الشوارع بتدس فيها من يقتل عمرايا أو من يحضر من زميليه .

ومما يذكره عمرايا في مذكراته أن أحد الثلمان الجرركس في منزل عبد المال بك حلى ، وهو ابن زوج حرمه التوفى ، قد وضع له السم في اللبن بإيعاز غلام جرركسى آخر من غلمان الخديو ، ولولا أن تنبته الخادمة لراح عبد المال نحية هذا القدر الأثم وكذلك سمع الضباط أن الحكومة تنوى أن ترسل الآلاى السودانى بقيادة عبد المال بك إلى السودان ، بحجة أن القوة الموجودة فيه غير كافية لحفظ النظام . فأحس الضباط من ذلك أن النية متجهة إلى تشقيتهم للقضاء عليهم متفرقين

وانهم تسعة عشر ضابطاً أحد رؤسائهم بأمر فسيبها إليه أثبت التحقيق بطلانها ، فأبعدتهم الوزارة عن مناصبهم . فبادر الخديو بإعادتهم ، الأمر الذى حق له زعماء الجيش . إذ رأوا فيه أن الخديو إغماض حركة التمرد في صفوف صفار الضباط ويستلمهم إليه ضد رؤسائهم .

وترأى إليهم أن الخديو يرمي حرسه في الاسكندرية على إطلاق النار ، وأنه يشهد ذلك بنفسه ويتر الذهب على الجند متظاهراً بكفائة المجيدين في إصابة المرمى ؛ ولئن يفمر مثل هذا العمل

في ظروف كهذه إلا بأنه استعداد من جانب الخديو لما هو مقبل عليه من قمع وبطش .

هذا بينما أرادت الوزارة أن تسخر الجند في الآليات الأخرى في حفر الرياح التوفيق ، وكان عليهم أن يسدوا أسلحتهم إلى مخازن الجهادية قبل ذهابهم إلى ذلك العمل ؛ ولقد رفض عمرايا الموافقة على ذلك ، وأيده البارودى وزير الجهادية

وأرسل الخديو من الاسكندرية كما يقول عمرايا في مذكراته على فعلى رئيس الحرس إلى زميليه في القاهرة ليقول لها إن الخديو يرغب في عزى البارودى لما رأى من ذبذبه وسوء سياسته ، وإن الخديو يسطف على مطالبهم « فهم ثلاثة وهو رابعهم » وإن سموه يطلب ألا يمل أحد بإيقاد على بك إليهم .

وعزل البارودى فعلاً ، وكان رياض قد أمره أن يعد عمرايا وبعد المال بفرقتيهما من القاهرة ، فأتى عليه ذلك وجاء إلى البارودى ، وكان بالقاهرة ، أمر أن يسافر فوراً إلى عزبته .

ولقد كان البارودى على صلة برجال الجيش ينهم كما أسلفنا بكل ما تريد الحكومة بهم ، واتفق معهم أن يكون خروجه من الوزارة علامة اقتراب الخطر .

وحل محل البارودى داود يكن باشا صهر الخديو فاثبت أن لما إلى الصرامة في معاملة رجال الجيش ، فخطر عليهم الاجتماع بالنازل أو ترك مراكرم ليلاً أو نهراً وأندرم بأشد العقاب إن خالفوا أوامرهم ؛ ومع أن عمرايا وأنصاره قد هناؤوه بمنصبه ، وطلبوا إليه أن يعمل على إجابة مطالب الجيش التى كان البارودى يسعى في إجابتها ، فإنه اكتفى بالعودة ولم يفعل شيئاً .

وأحيط بيت عمرايا وعبدالمال بالجواسيس ، وجرت الشائعات بالنذر قلاً القاهرة بآ محجب وهو أن الخديو قد استصدر فتوى سرية من شيخ الإسلام بقتل عمرايا ، وكانت الظروف يومئذ تساعد على تصديق هذا النبأ الكاذب أكبر المساعدة .

وطلب رجل مجهول الإذن على عمرايا في منزله فلم يأذن له وشوهد أنه عاد إلى أحد غفار البوليس ؛ وذهب عمرايا إلى منزل زميله فلم أنه حدث لهما مثل ما حدث له فأيقنوا أن حياتهم قد باتت في خطر ، وكان ذلك في ٨ سبتمبر سنة ١٨٨١ م .

لذلك كله عول الضباط على أن يخطوا خطوة حاسمة ، وكانوا على صلة دأمة في تلك الشهور التى أعقبت حادث قصر النيل رجال الحركة الوطنية « بنج »

النفيس